

ابن خلدون وسكان البادية في المغرب الأوسط خلال القرنين

7-8 هـ / 13-14م

أ/ شباب عبد الكريم
جامعة سعيدة

ملخص:

تحاول هذه الورقة المساهمة في إبراز التاريخ الاجتماعي لبلاد المغرب الأوسط، الذي يعاني من قلة الدراسات الأكاديمية المتخصصة في هذا الجانب. واخترت كتاب "العبر" لعبد الرحمن بن خلدون، كنموذج لدراسة سكان بادية المغرب الأوسط، لأنه عاش لسنوات طويلة في تلك الربوع، خاصة مرحلة القرن الثامن الهجري (14م). وبالتالي فهو شاهد عيان، يضيف قيمة علمية هامة لهذه المساهمة المتواضعة، التي تحاول كشف المحددات التي وضعها ابن خلدون حين نقل لنا واقع القبيلة المغاربية، وعلى رأسها رابطة الدم التي يضعها في إطارها الواسع والرمزي وما يمثله من أممات العيش وأشكال التحالف والولاء والانتماء.

الكلمات المفتاحية: العصبية، الحلف، الولاء، البادية، النظام القبلي، البدو.

أهل البادية

لم يكن سكان المغرب الأوسط يتشكلون - فقط - من سكان الحواضر بل شكلت البوادي والأرياف مركز ثقل سكاني هام، ومن مظاهره الانتشار الكبير للقبائل العربية والبربرية في البوادي. ويعرف ابن خلدون سكان البادية بأنهم: "المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو منالطين والحجارة غير منجدة"¹. إذا كان هذا هو التعريف الذي قدمه ابن خلدون لأهل البادية، إلا أن السؤال الذي يطرح هو: هل كان كل سكان بوادي المغرب الأوسط ظواعن؟.

يشير صاحب كتاب «العبر» في أكثر من مجال إلى القبائل التي تعيش حياة الترحال، فهو عند حديثه عن بني توجين² يوضح بالإشارة أن ملكهم بدوي "لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ولا إيلاف الرحلتين"³. ويبدو أن القبائل العربية التي استوطنت بلاد المغرب الإسلامي

أثرت في القبائل البربرية من ناحية العادات والتقاليد فقبيلة زناتة⁴ كانت تسكن الخيام وتتخذ الإبل وتركب الخيل⁵. ويؤكد هذا الرأي صاحب كتاب « بغية الرواد » الذي ذكر أن قبيلة بني عبد الواد الزيانية قبل أن تقيم ملكا، كانت تنتجع الميرة⁶، في تلول تلمسان قادمة من الصحراء على عادة سكان البادية⁷.

كما أن السلطان الزياني أبا حمو الأول (-718 707 هـ / -1307 1318 م). حينما أراد غزو منطقة متيجة، انتظر فصل الشتاء حتى ترحل العرب إلى مشاتيه⁸ وفي موضع آخر يشير إلى أحياء سويد⁹ الذي التحق بهم السلطان الزياني أبو تاشفين (-737 718 هـ / -1336 1318 م) في مشاتيهم، وذلك في فترة الفتنة مع أبيه السلطان أبي حمو حول الاستئثار بحكم المغرب الأوسط¹⁰.

ثم يشير إلى زغبة¹¹ الموجودة أحياءهم في مجالاتهم بالقفر¹².

يصور إذن، ابن خلدون معظم المجموعات البشرية المتساكنة في أرياف المغرب الأوسط، على أنها غير مستقرة، بيد أنه في موضع آخر يكون أكثر دقة، في تمييز وتفصيل أنواع حياة الترحل بقوله: « فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح ، كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم ، ومن كان معاشه في السائمة، مثل الغنم والبقر ، فهم ظعن في الأغلب لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة...، وأما من كان معاشهم في الإبل، فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغي بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر»¹³. يظهر جليا من النص المذكور أن ابن خلدون، الذي يؤكد دوما أن الناس لا يجتمعون إلا من أجل التعاون لضمان معاشهم ويبدوون بالضروري منه، يميز بين ثلاث مجموعات بشرية تسكن البادية، من حيث نمط المعيشة:

المجموعة الأولى: هم البدو المستقرون، الذين يتمركزون في السهول والتلال والهضاب، ويسكنون القرى» ويعيشون من نتاج الأرض كالحبوب والفواكه، فيدعوهم ذلك إلى الاستقرار. وهم بقربهم من المدن والأمصار يتوقون دوما إلى السكنى فيها، والاستفادة من رغد العيش المتوفر فيها «¹⁴، وبالتالي فهم مرشحون للتمدن، على أن معيشتهم تبقى دون مستوى ترف أهل المدن، ويمثل عرب الثعالب المستقرون في بسيط متيجة، نموذج البدو المستقرين في أحياء وقرى عدة. ورغم قرب القرى البدوية من مراكز السلطة في الأمصار الكبرى، إلا أن لنظام القرية قوانينه ومميزاته فهو يقتضي تجنيد كل المواطنين لمواجهة مختلف الأحداث، بما في

ذلك الأحداث العسكرية. إن الخطر الخارجي يذكي الإحساس بالانصهار ضمن الجماعة القبلية ويعزز تلاحمها الداخلي، الذي قد يهدد استمرار وجودها، سواء كان ناجما عن عصبية زاحفة من خارجها أو عن تدخل سلطة مركزية¹⁵.

المجموعة الثانية: هم البدو أنصاف الرحل، الذين يعيشون من تربية المواشي، خاصة الأغنام والأبقار، وقد يضيفون لها ممارسة الزراعة كنشاط مكمل لحرفة الرعي. وكان البحث عن مواطن الكلاً للماشية هو سبب ترحل هذه القبائل عن أوطانها في فصل الشتاء إلى «المشاتي» . وقد أوردنا أن قبائل توجين وسويد كانتا ترتاد المسارح شتاء، فالسلطان الزياني أبو تاشفين، قام عام 717 هـ / 1319 م ، بمحاصرة توجين ومغراوة في جبل وانشريس¹⁶ إلى أن جاعتمواشيهم¹⁷، ويشير ابن خلدون أيضا أن قبيلة مغراوة، حاصرها السلطان الزياني أبو ثابت عام 752 هـ / 1351 م ، حتى أصاب مواشيها العطش¹⁸.

يظهر جليا أن هذا الصنف من البدو، كان اعتماده على الماشية ضروريا لتحصيل قوتهم. أما ترحلهم فكان ضيقا ومنظما حسب الفصول، وبحكم توسع عمران قراهم، وتطور طرق الانتاج الزراعي، فهم يظلون جماعة سكانية متحضرة نسبيا ، لذلك احتاجت حاكما يضمن الأمن في نطاقاتها، وينظم الحياة العامة بها، ويكون هذا الأخير إما ملكا أو أميرا أو شيخ قبيلة¹⁹.

المجموعة الثالثة: البدو الرحل، وهم سكان الصحاري والقفار، الذين تتميز أراضيهم بالجذب، مما يضطرون للإمعان في الترحل، بحثا عن العشب لإبلهم التي « تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها »²⁰. وبالتالي فالأرض التي هم عليها ليس لهم منها إلا الحيوان الذين يملكون قطيعه بقدر ما يملكهم²¹، لا يشتركون مع أية جماعة أخرى في أرض أو مرعى، والرابطة الوحيدة التي تشد أفرادا منهم إلى آخرين، وتميز جماعات منهم عن أخرى، هي الرابطة الطبيعية، رابطة الدم، التي تبقى لديهم واضحة الصفاء، ونقاوة أنسابهم، نتيجة تفردهم في القفر وعدم اختلاطهم مع غيرهم²².

إن الترحل في القفار و الفيافي التي تتميز بها الطبيعة الجغرافية لجنوب بلاد المغرب الوسط، كان عادة سائرة لدى بعض القبائل العربية والبربرية على حد سواء، والتي لا تزال بعض نماذجها ماثلة للعيان في عصرنا²³. يورد ابن خلدون بهذا الخصوص في كتابه « العبر » أن لقواط²⁴ « فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغله في القفر »²⁵. إن هذا الفريق من الرحل تقتصر حياتهم على الضروري من القوت، بسبب طبيعة البيئة الجغرافية التي يحيون فيها، التي لا توفر أحيانا حتى الحد الأدنى لشروط الحياة المادية. وأشرنا في هذا السياق أن ابن خلدون،

وضح أن هؤلاء البدو الرحل، يتميزون بالتوحش، لأن مراعي ومسارح إبلهم، لا توجد إلا في القفار. لكن السؤال الذي يطرح هو هل معنى التوحش يعني حياة الشعوب البدائية كما يفهم في عصرنا؟.

إذا علمنا أن الرحل، الذين يجوبون القفار، يعتمدون على قوانين وأنظمة اجتماعية واقتصادية وثقافية وعسكرية، تسير حياتهم اليومية، وتضبط أحوال الجماعة المحلية (= القبيلة)، ومرتبون بالجماعة الكبرى، التي هي الأمة الإسلامية، أدركنا أن هؤلاء الرحل « متوحشون من جهة الحياة الاقتصادية، لكنهم متصلون بالحياة الحضارية ثقافيا»²⁶.

النظام القبلي

تعتبر القبيلة محور التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في البادية، وسواء كانت هذه القبيلة عربية أم بربرية فهي في غالب الأحيان تتألف من عدة بطون.

وقد احتلت فئة المشايخ قمة البناء الاجتماعي في البادية، وقد أشار ابن خلدون في أكثر من موضع إلى هذه الفئة التي كانت غالبا هي المرجع الأول في تصريف أمور الجماعة في الريف. ومن المظاهر التي تبرز المكانة السامية للمشايخ بين قومهم، أن قبيلة بني عامر وفدت على زيان ابن السلطان الزياني أبي حمو، وقدم طاعتهم « شيخهم المسعود ابن الصغير²⁷ »²⁸. كما أن تضييق السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن²⁹ على مغراوة بإتصال حروبه عليهم، دفع بهم إلى ابفاد مشيختهم، لطلب النجدة والعون من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق³⁰ سنة 694 هـ / 1295 م³¹.

وحول هذه الفئة دائما يدقق ابن خلدون أكثر في المصدر الذي تستمد منه تلك المكانة: « وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم، لما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة³² » ومن جهة ثانية فقد سجل الجغرافي ابن حوقل في القرن الرابع الهجري المكانة التي تتبوأها فئة المشايخ عند سكان أرياف بلاد المغرب الأوسط: « وفيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل يطيعونهم فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم»³³.

هكذا تمكنا النصوص المذكورة من استنتاج أن المشايخ في البوادي كانوا أهل حل وعقد بالنسبة لجماعتهم المحلية (= القبيلة) يشرعون القوانين ويقترحون الحلول، ويفضون النزاعات، والكل يلتزم بما يصدر عنهم « ومرد التزام الفرد بالحكم الصادر عن مجلس القبيلة، راجع لاقترانه بعدله، وإلا لكان بإمكانه وبكل سهولة أن يعتزل مجتمع قبيلته دون أن يناله أدنى عقاب

بدني، ويرجع هذا إلى صفات البدوي نفسه ممثلة في حبه حرته، وفي بساطته وصرافته ، وصدقه وعدم انصياعه للإهانة والمذلة»³⁴.

ونظرا لولاء ساكنة البادية للمشايخ، اتجه رجال السلطة إلى منحهم اقطاعات من الأراضي، كما فعل يغمراسن بن زيان (-962 632هـ / -1235 1554م) حينما أقطع أحد شيوخ قبيلة سويد، وهو عنتر بن طراد بن عيسى أراض شاسعة بالبطحاء.

وحسب العرف القبلي، فإن الأفراد في القبيلة الواحدة متساوون في الاستفادة من الموارد الاقتصادية المشاعة، كالمراعي والآبار والعيون، إلا أنه لما كانت القبائل تقوم بعمليات غزو وسلب من حين لآخر، فقد كانت هذه العمليات فرصة مناسبة لبعض أفراد القبيلة، تتيح لهم أن يبرزوا شجاعتهم وقوتهم وجراتهم ، وكانت هذه الفئة تحظى بامتيازات خاصة ، مكافأة على بلائها³⁵. لكن القبيلة في مقابل ذلك تأخذ منه حرته. إن صراعه مع الآخرين لا يقوم به دفاعا عن نفسه ، بل دفاعا عن القبيلة التي تحميه ، القبيلة التي يبدأ وجوده الشخصي بوجودها وينتهي بانتهائها³⁶.

وهكذا فإن المعطيات السابقة، تقدم الاستنتاج الذي مفاده، أن النظام القبلي في البادية يشكل وحدة اجتماعية متماسكة ، تضبط العلاقات بين الأفراد ، وتنظم الشؤون العامة للجماعة المحلية في البادية ، لكن يجب أن نشير إلى أن رابطة الدم لم تكن وحدها دائما تؤدي إلى نشأة وتوسع القبيلة . لكنها تنشأ أيضا « بحكم التعايش ووحدة المصالح الاقتصادية والتكتلات السياسية»³⁷.

ومن جهة ثانية فإن التفاوت الطبقي لا يظهر واضحا مقارنة مع مجتمع المدينة ، ففي مجتمع البادية يمكن ملاحظة دائما: « أن البدوي الحامي للقري، والزناتي الملاك المتحالف معه يكونان طبقة نبيلة»³⁸. أما أسفل الهرم الطبقي فيأتي «الحراثون وهم طبقة اجتماعية وعرقية في نظر البدو الغالبيين، يتكونون من مزيج من السكان الأصليين والعبيد القدماء»³⁹.

الخلاصة:

إن المعطيات التاريخية التي تضمنتها هذه الورقة، تسمح لنا باستخلاص ما يلي:

1- إن المستوى المعيشي لسكان البادية تميز بتعدد مستوياته، إلا أن الإطار العام لحياة البادية، ظل واحدا في جميع أرجاء المغرب الأوسط.

2- إن مجتمع البادية في المغرب الأوسط، حافظ على التراتبية المعهودة التي طبعت المجتمع الإسلامي، خلال العصور الوسطى، من حيث تمايز فئاته.

- 3- شكلت القبيلة الإطار الاجتماعي الأمتن في البادية، حيث يتم في إطارها ضبط العلاقات بين الأفراد، وتحدد حرف ووسائل الإنتاج والعيش.
- 4- إن العصبية عند ابن خلدون لا تقوم على أساس رابطة الدم فقط، إنما يضعها في معناها الواسع الذي يضم أممات العيش وأشكال التحالف والانتماء.
- 5- أهمل ابن خلدون في كتاب « العبر »، الإشارة إلى بعض الفئات الاجتماعية المميزة والمؤثرة في مجتمع البادية، ونعني بهم الأشراف والمرابطين.

الهوامش:

1. ابن خلدون : المقدمة، دار القلم بيروت، الطبعة السابعة 1409هـ/ 1989م، ص: 121.
- ² قبيلة توجين : إحدى بطون قبيلة زناتة الأم ، من بني بادين بن محمد، ولم يكن لبني توجين ملك حسب ابن خلدون، كانت مواطنهم تمتد من وادي الشلف قبلة جبل الونشريس من أرض السرسو، وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة. أنظر ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م 7 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص: 119-120-318-319.
- ³ المصدر نفسه م7ص: 321.
- ⁴ قبيلة زناتة: تنحدر أصولها من ولد جانا بن يحيى بن صولات بن وزمك بن ضريوفيك بن مادغيس بن بربر من البربر البتر، مواطنهم بإفريقية والمغرب والأكثر منهم بالمغرب الأوسط. أنظر : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف. القاهرة 1382 / 1962 م ص: 495. ابن خلدون، العبر م 7 ص: 04/03
- ⁵ ابن خلدون: العبر م7ص: 289.
- ⁶ الميرة: جلب الطعام، والميار: جلب الميرة. يقال ماره يموره إذا أتاه ميرة أي طعام. والمقصود من سياق العبارة التنقل في مواطن الكلا ماشيتهم. أنظر، ابن منظور، لسان العرب، م 6، المادة مير، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص: 114/115.
- ⁷ يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزء الأول، المكتبة الوطنية بالجزائر ، 1400 هـ / 1980 م ، ص: 198.
8. ابن خلدون: العبر م7ص: 289.
9. هم بطن من بطون عرب بني مالك من زغبة، جمعهم علاقات محالفة مع ملوك بني عبد الواد، وقد اعتمد عليهم يغمراسن بن زيان في توطيد أركان ملكه فقريهم من الدولة خاصة رؤساءهم من أولاد سيدي عيسى بن عبد القوي وهم: يوسف بن مهدي الذي أقطعه بلاد البطحاء وسيرات، وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى منطقة قرارة. ثم نجح السلطان المريني أبو الحسن في فترة لاحقة من استمالتهم مقابل اقطاعات هامة تحصلوا عليها. 10. أنظر ابن خلدون: العبر م6 ص: 96 وما بعدها.
11. زغبة: مجموعات سكانية عربية هلالية نقلهم الموحدون من إفريقية وطرابلس إلى المغرب الأوسط لحمايته، فاستقروا على حزام جغرافي واسع يمتد من المسيلة إلى تلمسان وما جاورها من الصحراء. وبعد نجاح بني عبد الواد في تشييد دولة، نزعوا عن التلول، وخلفهم عرب زغبة عليها وكانوا يعودون إلى

- مواطنهم بالصحراء كلما شعروا بضعف وضعهم. أنظر ابن خلدون العبرم 6 ص: 106، 105، 107.
12. ابن خلدون: العبر م 7 ص: 755.
13. ابن خلدون: المقدمة ص 121.
14. محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون- العصبية الدولة- معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة، أبريل 1994، ص 147.
15. محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 2002، ص 56.
16. ابن خلدون: العبر م 7 ص 193.
17. وانشريس: جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب الأوسط: ياقوت الحموي، معجم البلدان م 5، المادة واهب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1995، ص 355.
18. يحيى بن خلدون، مصدر سابق ص 216.
19. AbdelghaniMegherbi : La pensée sociologique D'ibn Khaldoun. ENAL ALGER . 2^{ème} édition. 1977 p : 145
20. ابن خلدون: المقدمة ص 129.
21. عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م ص 212.
22. محمد عابد الجابري : مرجع سابق ص 148/147
23. سجل عبد المجيد مزيان، أن قبائل الطوارق وقبائل الرقيبات في أقصى الجنوب الجزائري، لا تزال تحافظ على خصائص معيشية واجتماعية واقتصادية، كما لاحظها ابن خلدون. أنظر عبد الحميد مزيان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دراسة فلسفية اجتماعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثانية: 1988 ص 243.
24. لقواط ، فخذ معروف من قبيلة مغراوة البربرية، انتشروا على نطاق جغرافي واسع، في رحلاتهم من هوامش الصحراء في بلاد الزاب إلى منطقة جبل راشد، تميزت ظروفهم المعيشية بالقساوة، لجذب المجالات الطبيعية التي عاشوا فيها. أنظر ابن خلدون: العبرم 7 ص 100.
25. ابن خلدون: العبر م 7 ، نفس الصفحة.
26. عبد المجيد مزيان: مرجع سابق ص 236.
27. المسعود بن الصغير ، شيخ بني عامر من عرب زغبة ، لعب دورا هاما في محاربة التوسع المريني على بلاد المغرب الأوسط ، خاصة على عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (707 - 718 هـ). أنظر العبر م 6 ص: 105 وما بعدها ، ومصطفى أبو ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدون وبنو مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص : 155 وما بعدها.
28. ابن خلدون: العبر م 7 ص 306.
29. تولى الحكم الزياني بعد وفاة والده يغمراسن بن زيان سنة 681 هـ وعمل على توطيد أركان الحكم حتى وفاته، سنة 707 هـ.
30. يعقوب المنصور المريني بويج له لتولي أمور بني مرين عام 656 هـ / 1258 م ، أشتهر بجوازاته الربعة للجهاد في الأندلس سنوات : 673 هـ / 1274 م ، 676 هـ / 1277 م : 682 هـ / 1283 ، 684 هـ / 1285 م ، توفي بالجزيرة الخضراء عام 685 هـ / 1286 م . أنظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في

- أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972، ص : 297 وما بعدها.
- 31: ابن خلدون العبر م 7 ص : 456 .
- 32: ابن خلدون : المقدمة، ص : 127 - 128 .
- 33: ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص : 97 .
- 34 - جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (10/9م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون تاريخ نشر، ص : 252 .
- 35-المرجع نفسه ص : 254 .
- 36- عبد الله شريط : مرجع سابق ص : 212 .
- 37- عبد المجيد مزيان : مرجع سابق ص : 177 .
- 38- المرجع نفسه ص : 188 ، 189 .
- 39.المرجع نفسه ، ص:188.